

٤ - الغزالي

ابو حامد محمد بن محمد الغزالي ، كان يدعوه العامة بالغزالي ، أكبر علماء الكلام لعهدده وأحد أئمة المذهب الشافعي . ولد في طوس إحدى مدن خراسان عام ٤٥٠ للهجرة (١٠٥٨ للمسيح) ودرس العلوم في بلده ، ثم رحل في طلب العلم الى نيسابور ، وظهرت عليه منذ صباه علامات الذكاء والخارق والنجابة النادرة . وكان علمه الواسع بعلوم الكلام ، ووقوفه على فنون الفلسفة ، سبباً في اقبال نظام الملك وزير السلطان ملك شاه السلجوقي عليه ، فوكل اليه إدارة المدرسة النظامية التي أسسها ببغداد .

وكان الغزالي حينئذ في الثالثة والثلاثين وله بين العلماء مرتبة رفيعة . وبعد سنين قليلة ترك المدرسة النظامية ، وقصد الى أداء فريضة الحج في مكة ، ولما أتم هذا الفرض المقدس ، ألقى دروساً في جوامع دمشق وبيت المقدس والاسكندرية ، وإذا كان بالاسكندرية أوشك أن يرحل الى المغرب ليقدم على يوسف بن تاشفين أمير مراكش أحد امراء المرابطين فأثابه نعي يوسف ، فعاد الى طوس واتقطع الى حياة الفكر ، وعاش عيش المتصوفة وانكب على تأليف الكتب ، وكانت غايته من وضعها تقرير امتياز دين الاسلام على غيره من الأديان ، وعلى الفلسفة ولذا سمي حجة الاسلام وزير الدين وأشهر كتبه إحياء علوم الدين وهو كتاب في علم الكلام والآداب مقسم الى أربعة أقسام : الأول في الشعائر والاحتفالات الدينية والثاني في القوانين الخاصة بأحوال الحياة الدنيوية والثالث فيما يهلك والرابع فيما ينقذ ، أي في الرذائل والفضائل

ثم هجر التأليف وعاد الى نيسابور ، ليدبر المدرسة النظامية ، ثم عاد الى طوس وأسس ملجأ للصوفيين (تكية) وقضى بقية أيامه في العبادة والتأمل ، وقضى الى رحمة الله عام ٥٠٥ للهجرة (١١١١ للمسيح)

أما المعلومات الكاملة عن حياته ، فقد أعطاها الموسيو دي هامير ؛ في مقدمة كتاب « أيها الولد » في الترجمة العربية الالمانية ، وهو كتاب في الأخلاق من كتب الغزالي

إنما الذى يهمنى فى هذا الباب ، هو تاريخ حياة الغزالى الفكرية ، وسير دراسته والدرجة التى تنبغى له بين فلاسفة الاسلام ، وتأثيره فى فلسفة عصره ، وقد هداانا الى حل تلك المسائل الغزالى ذاته فى كتاب اسمه « المنقذ من الضلال » وقد شرح فيه حقائق الموجودات وحلل هذا الكتاب تحليلاً كاملاً بالمسيو پاليا والموسيو شمولدرز فى مقالة على « مبادئ الفلاسفة عند العرب » وقد نشر شمولدرز نص رسالة الغزالى العربى وترجمة فرنسية فيها بعض أغلاط ولكنها لا شك كافية .

وهذه الرسالة هى فى شكل جوابات على أسئلة وجهها اليه صديق فتكلم أولاً فى الصعوبة التى لقبها فى التمييز بين المبادئ والتعاليم الفلسفية المختلفة ، وفى معرفة الخطأ من الصواب ، وتكلم عن المسامحة التى لم يذته من بذلها منذ سن العشرين فى سبيل الوقوف على الحق . قال وبعد أن درس مبادئ الفلاسفة الدينية والحكمية وتعمق فيها أخذ يشك فى كل شىء ، وسقط فى هوة الجحود المطلق وارتاب فيما يهديه اليه الحس ، الذى طالما يرشدنا الى أحكام يناقضها العقل ، كذلك لم يكن العقل كافياً لرفاع الغزالى لأن لاشىء يثبت صحة مبادئه ، وأن الذى نعتقده صواباً فى اليقظة بواسطة الحس أو العقل ليس كذلك إلا لعلاقته بالحال التى نمح عليها ولكن هل نمح متحققون من أن حالاً أخرى لا تتلو تلك وتكون بالنسبة لليقظة كنسبة اليقظة للنوم بحيث نعرف فى تلك الحال الحادثة أن كل ما حسبناه صحيحاً بواسطة العقل ، لم يكن إلا حملاً لا حقيقة له . وفى الواقع رجع الغزالى عن جحوده ، ولكن هذا لم يكن بقوة العقل إنما فى اثناء بحثه عن الحقيقة ، انقطع للتعلم فى مبادئ المتكلمين والباطنية والفلاسفة والمتصوفين ، ولم تجرد نفسه هداها إلا فى التصوف والتأمل والانجذاب الذى يعرفه الصوفيون . بيد أنه ليس للغزالى أثر ظاهر فى مبادئ الصوفيين ، ولكن أثره الأعظم هو فى تاريخ الفلسفة العربية فان جحوده الذى لم يظهره فى كتبه بشكل مبدأ ، خدمه ليطعن المبادئ الفلاسفية طعنة مشؤومة

بين مؤلفات الغزالى التى عددها الموسيو هامر فى رسالته كتابان جديران بالنظر .

الكتاب الأول « مقاصد الفلاسفة » والثاني « تهافت الفلاسفة » ، أما كتاب المقاصد فهو تلخيص للعلوم الفلسفية شرح فيه المؤلف علم المنطق ، وما وراء الطبيعة ، والطبيعات ولم يبتعد في شرحه عن مبادئ أرسطو ، التي شرحها الفارابي وابن سينا وقد قُبل هذا الكتاب الى اللغة اللاتينية في أواخر القرن الثاني عشر بواسطة « دومينيك جندسالتي » وطبع في البندقية عام ١٥٠٦ م . بواسطة « برتوس ليشنشتين دي كولوني » تحت اسم « منطق العرب وحكمتهم للغزالي » .

وقد يدهش من يرى الغزالي في المقاصد يشرح مبادئ الفلاسفة التي يهدمها في كتاب التهافت وقد ظن الموسيوريتي في كتابه (Geschichte der Philosophie) (تاريخ الفلاسفة ج ٨ ص ٥٩) أن الغزالي كتب المقاصد ، لما كان لا يزال قائلًا بمبادئ أرسطو ولكن الحقيقة هي أن الغزالي لم يرد بالمقاصد إلا الاستعداد لهدم المبادئ التي شرحها شرحًا وافيًا ، كما بين ذلك في المقدمة التي لم تنشر في كل النسخ الخطية اللاتينية وفي طبعة فينيس (البندقية) ولكنها موجودة في نسختين خطيتين باللغة العبرية وفي نسخة لاتينية في مكتبة السربون . وهذا ما قاله الغزالي في المقدمة ردًا على من سأله رد حجة الفلاسفة : « تسألني يا أخي تأليف كتاب كامل واضح للرد على الفلاسفة وتبيين خطأ مبادئهم لتبني بذلك الوقوع في الخطأ ، ولكن هذا عبث قبل أن تعرف مبادئهم وتعاليمهم تمام المعرفة لأن الرغبة في الوقوف على خطأ بعض الآراء قبل الوقوف عليها تمام الوقوف تعد خطأ ينتهي بالعمى والخلط . فظهر لي من الضروري قبل الشروع في نقض آراء الفلاسفة أن أضع كتابًا أشرح فيه مبادئ علومهم المنطقية والطبيعية والالهية دون التمييز بين الخطأ والصواب في مبادئهم لأن غايته هي شرح نتائج أقوالهم دون الاسهاب في أمور زائدة عن الحاجة ولا علاقة لها بالبحث ، فسأكتفي بشرح مبادئهم مضيغًا اليها الأدلة التي يثبتون بها أقوالهم ، فغاية هذا الكتاب هي شرح مقاصد الفلاسفة ولهذا اخترت له ذلك الاسم » . ثم ذكر الغزالي أنه سيرك العلوم الالهية جانبًا لاتفاق العامة على صحة مبادئها وأن ليس بها ما يحتاج الى النقض وكذلك مبادئ

المنطق هي على العموم صحيحة والخطأ فيها نادر ، أما الطبيعيات فالحق فيها ممتزج بالباطل .

وهذا ختام الكتاب في الأصل العربي والنسختين العبريتين : « فهذا ما أردنا أن نحكيه من علومهم المنطقية والالهية والطبيعية من غير اشتغال بتمييز الغث من السمين والحق من الباطل ولنفتتح بعد هذا الكتاب تهافت الفلاسفة حتى يتضح برهان ما هو باطل من هذه الجملة » .

وبعد هذا البيان الشافي ، ليس مكان للعجب من شرح مبادئ الفلاسفة في كتاب المقاصد . اما كتاب التهافت فغاية الغزالي منه هي نقض تعاليم الفلاسفة ، بنقد عام يظهر ما فيها من التناقض ، ويوضح مخالفتها للعقل ، وهذا نص ختام كتاب التهافت « واذا أعترض علينا بأن انتقادنا لا يخلو من الريب ، تقول إن بالنقد يتضح برهان ما هو صحيح وما هو باطل ، فاذا عرضت صعوبة أمكن حلها بفحص النقد والاعتراض . إنما الذي نرمى اليه في هذا الكتاب ، هو أن نشرح مبادئهم وأن نقابلها بما ينقضها من الأدلة ولا نريد أن نكون على مبدأ منها ، وليس مقصدنا أن نذكر أدلة على حدوث العالم ، إنما هدم ما ذكروه من الأدلة تأييداً للقول بقدم المادة . وبعد الفراغ من هذه الرسالة سنشرع في تأليف غيرها لاثبات الرأي الصحيح الذي غايته تشييد الحق ، كما أن غايتنا من هذا الكتاب هي هدم الباطل »

وبدأ الغزالي مقدمة الكتاب بنقد آراء القائلين بآراء الفلاسفة ، المعرضين عن حكمة الدين ليثبت أن كل ما يقولون به مما يخالف قواعد الدين ليس له أساس .

ثم اسهب في القواعد الأربع ، التي اهتدى بها في تأليف هذا الكتاب ، وبعد المقدمة شرع الغزالي في نقض حجج الفلاسفة في عشرين نقطة ، ست عشرة منها في الآلهيات وأربع في الطبيعيات .

وأهم ما في هذه النقط هو الفصل المتعلق بالمسببات ، وملخص قوله في هذا الباب يرجع الى مسألتين : الأولى انه اذا اجتمع أمران معاً فليس فيه دليل قاطع على أن

الأول علة الثاني ، الثانية : اذا فرضنا صحة فعل بعض الظروف (تعلق أمر بأمر) بناء على قانون طبيعي ، فليس ينتج من ذلك أن الأثر يكون بذاته في ظروف مماثلة حتى ولو كانت الأشياء مماثلة . فان القطن يمكن بارادة الله أن يتخذ شكلاً يقبه الحريق ، وبعبارة أخرى أن ما يسميه الفلاسفة بقوانين الطبيعة أو قاعدة العلل ، هو أمر يقع تبعاً لارادة الله ونحن نقبله كأمر واقع محقق لأن الله سبحانه وتعالى في سابق علمه علم مصير الأمور فعلاً ما ياه ، فليس هناك ، والأمر كذلك ، قانون طبيعي ثابت يقيد ارادة الخالق جل وعلا .

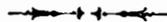
تقول ان بعض الفلاسفة ، مثل ابن رشد كانوا يعتقدون أن الغزالي لم يكن مخلصاً في قوله ، وان الخلاف بينه وبين الفلاسفة ، كان على تقط محدودة ، انما أراد الطعن عليهم في سائر التقط لتزداد به ثقة أهل السنة . وذكر موسى بن ناربون ، بعد أن ذكر رأى ابن رشد السابق في بداية شرحه على المقاصد ، ان الغزالي كتب بعد الفراغ من تأليف التهافت ، رسالة صغيرة لم يعلم بها الا بعض المقرئين وفيها ردود على ما وجهه من النقد الى مبادئ الفلاسفة ، وان هذا الكتيب يُسمى « رسالة وضعها أبو حامد بعد التهافت ليكشف عن فكره للحكماء وفيها مقاصد المقاصد واللييب تكفيه الاشارة » وفي هذا الكتاب أبحاث إلهية ذات أهمية كبرى ولكن لغتها عويصة الفهم على العامة ، وقد بدأ هذه الرسالة بالكلام في الدوائر العليا وحركاتها ونفوسها ، ثم تكلم في المحرك الأول وفي صفاته ، ثم تكلم في النفس ، وليس في هذه الرسالة أثر لاحتقار الفلسفة كما في التهافت انما يقيم الأدلة كأنه بعض الحكماء لا كالتكلمين ، ويثبت بالحجة العقلية اموراً في الآلهيات ، حاول تقضها في التهافت . فانه يقول في هذه الرسالة مع الفلاسفة بازلية الزمان وحركة الدوائر السماوية ، وفي ختام هذه الرسالة حرم الغزالي الاطلاع عليها الا على أهل النفوس القوية ، والعقول السليمة ، عملاً بقول النبي (ص) « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » .

كتب ابن الطفيل رغم احترامه للغزالي ، يوضح اضطرابه وتردده في مبادئه

(نقلاً عن كتاب حى بن يقظان صفحة ١٩ - ٢١) نبذة أولها « اما عن كتابات الامام الغزالي . . . الخ » . ثم ذكر ابن الطفيل نبذة من كتب الغزالي ، مؤداها أنه ألف كتباً باطنية ، لا يطلع عليها إلا فريق من الخاصة المقربين وان هذه الكتب ليست فيما وجد في مكاتب الأندلس وأهمها كتاب المضمون به وهو موجود بصحبة أربع رسائل للغزالي في المكتبة الوطنية بباريس (المكتبة الامبراطورية سابقاً) تحت عدد ٨٨٤ نسخ خطية وذكره العلامة شمولدرز في مقاله ص ٢١٣ مذكرة ١ بالهامش وفي هذا الكتاب « المضمون به » أظهر الغزالي اتفاه مع الفلاسفة على قدم العالم ويقول كقولهم بأن الذات العلية تعلم الأمور إجمالاً لا تفصيلاً أى تحيط بالكليات لا بالجزئيات ، وأنها مجردة عن الصفات ، ولكن بعض المؤلفين نفي نسبة مثل هذا الكتاب للغزالي ، لبعده عما كان يقول به حجة الاسلام فى أمهات كتبه (يراجع فهرست الحاج خليفة طبعة الموسيو فلوجل ج ٥ ص ٥٩٠)

وجملة القول أن الغزالي اذا كان له مبدأ خاص به فانه لم يهتد اليه إلا بالتأمل وبالانجذاب الذى حل به منذ تصوف ولا تكون نتيجة الانجذاب فى الواقع مبدأ فلسفياً . ثم أن الغزالي يعلق أهمية كبرى على العمل وهو يمثله فى كتابه « ايها الولد » بالثمره والعلم بالشجرة . ومن أهم كتبه فى الأخلاق والحث على الفضيلة كتاب « ميزان الأعمال » طبع له تفسير عبرى فى ليزيخ عام ١٨٣٩ وناقله عن العربية المعلم ابراهيم ابن حسد اى الاسرائيلى الاندلسى

وأهمية الغزالي عند الافرنج هى فى وجوده العلوم الفلسفية ويقول علماءهم أنه طعن الفلاسفة فى الشرق العربى طعنة قاضية وكان يكون نصيبها فى الغرب كذلك لو لم تاق فى ابن رشد حامياً لها أحياءها قرناً من الزمان



* إيضاح عن الغزالي *

(١)

لا شك في أن هذا الفيلسوف الحكيم ، يمد من أعظم أعلام الفكر العربي الاسلامي ومن أئمة أهل البحث والنظر في علوم الدنيا والدين ، وقد عدّه كثيرون من مؤرخي الفلسفة والأدب من نوادر الدهر نبوغاً ونوراً . وقد كان من الفطاحل الذين زانوا القرن الخامس الهجري بعد نهاية الصدر الأول ، وقد شاء أن يكون من تأليفه ذلك الكتاب الذي فيه احياء وانتائس لأئمن آثار السلف الصالح ، فلقبوه بحجة الاسلام بحق دون مغالاة أو مجاملة أما عن اسمه فقد اختلفوا في هل كان الغزالي بتخفيف الزاي أو تشديدها ، وقد بحثت هذه المسألة في « شذرات الذهب » والعبر لشمس الدين الذهبي و « طبقات الشافعية » لعبدالرحيم الاسنوي فقرر وأ أن اسمه كان بتشديد الزاي ، فقالوا الغزالي كالمطاري والحجازي بتشديد الزاي والطاء والباء وهذه لهجة أهل خراسان في غزّال وعطار وخباز بتشديد الحروف الوسطى . وجاء في « طبقات الشافعية » أن أباه كان يفرز الصوف فلقبه مستفاد من صناعة أبيه ولكن السمعاني قال « أن لقبه مستفاد من نسبته الى غزالة وهي إحدى ضواحي طوس » ونحن نميل الى تعليل السمعاني واطلاق اللقب بتخفيف الزاي

وسواء أكان الوالد يفرز الصوف ويبيعه في حانوته أم لم يكن ، فقد توفي تاركا ولديه محمداً (وهو ابو حامد) واحداً في غضاضة الطفولة . وكان بلا ريب رقيق الحال فأوصى بهما صديقاً متصوفاً قام على تربيتهما حتى استنفدتا ألبهما ، وقد شاعت الأقدار للغزالي أن يسافر ويرحل في طلب العلم ككل الفلاسفة والحكماء والانبيا والمصلحين الذين لا تكون نفوسهم إلا بالآلام في أوطانهم وفي اغترابهم . وقد صار الغزالي أنظر أهل زمانه ، واستطاع أن يؤلف ويدرس ويفيد الناس في حياة استاذه وهو في مقتبل عمره ، وهو شبيه في ذلك بابن سينا

(٢)

وما شاهدناه في اتصال الفلاسفة السابقين ، وه الكندي والفارابي وابن سينا بال خلفاء والوزراء ، وما اتخذوه من ذلك وسيلة لنشر أفكارهم وترويج مبادئهم ، نشاهد أيضاً في حياة الغزالي ، فقد اتصل بنظام الملك وغير الملك وعاش في ضلال آل سلجوق . فكان الفلاسفة المسكينة كانت أبدأ في حاجة للاحتواء بقوة الدولة منذ بداية التاريخ ، وهذا ارسطوطاليس اليوناني والمعلم الأول كان يعيش في ظل فيليبس المقدوني وأبنة الاسكندر . وكان فولتير

في الأزمان الحديثة يعيش في بلاط فردريك الاكبر، وكان جويته الالمانى العظيم في بلاط امير فيهار، ولم تتحرر الفلسفة وأصحابها إلا في حالتين ، حالة الفيلسوف القانع الذى يعيش من عمله الضئيل ليغذى الحكمة ، مثل سبينوزا الذى قضى حياته في صناعة الساعات والتأليف ، والحالة الثانية حالة الفيلسوف الممول ، اما بيمراث مثل ارثورشوبهور واما بثمرات مؤلفاته مثل جون ستيوارت ميل، وهذا أندر ما يكون بين الحكماء فعمظم هؤلاء القوم فقراء يعيشون من ثمرة أفكارهم بالتدريس والكتابة ، مثل فردريك نيتشه وبرجسون وغيرهما

(٣)

بين كتب أبى حامد التى ذكرناها في ترجمته كتاب « المضمون به على غير أهله » وقد وصفه بعض كتاب الافرنج بانه اعتراف الغزالي تشبيهاً له باعتراف جان جاك روسو، على أن هناك فرقاً جوهرياً بين الكتابين، فجان جاك روسو دون اعترافه شاملاً لجميع شئون حياته المادية والمعنوية والعقلية ، ولكن الشيخ الغزالي جعل هذا الاعتراف قاصراً على حياته العقلية والقلبية ، وهو رسالة الى صديق له وصفه بانه أخوه وجعل هذا الكتاب جواباً على سؤال توجه اليه من هذا الأخ ، فقال في استهلاله « فقد سألتنى أيها الأخ أن أثبت اليك غاية العلوم وأسرارها، وأحكى لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد الى يفاع الاستبصار، وما احتويته ثانياً من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الامام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف وما ارتضيته آخراً من طريقة التصوف، وما انحل الى في تضاعيف تفتيشى عن أقاويل الخلق من لباب الحق، وما صرفنى عن نشر العلم بيفداد مع كثرة الطلبة ، وما دعانى الى معاودتى بنيسابور به طول المدة » .

والظاهر من هذه النبذة الافتتاحية أن الغزالي قاسى كثيراً في استخلاص الحق ، وانه ازدرى الفلسفة وارتضى التصوف وهذا هو مفتاح حياته العقلية ، وظاهر من اعتراف الغزالي انه كان في عنفوان شبابه منذ راهق البلوغ قبل بلوغ العشرين ، الى أن أناف على الحسين أى قبيل موته بخمس سنين ، لانه توفى في نصف العقد السادس ، يحاول أن يستكشف أسرار كل طائفة بحرية مطلقة لافرق في ذلك بين محق ومبطل ، ومتسئن ومبتدع ، فجمع في بحثه بين درس الفيلسوف ليقف على كنه فلسفته ، والمتكلم ليجهتد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، والصوفى ليحرص على العثور على سر صفوته ، وأيضاً الزنديق المعطل والملحد الجاحد ليتجسس وراءه للتنبه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته

(٤)

وهذه حرية في البحث واستقصاء في الدرس يدلان على سعة صدره وسمو فكره، إذ لا يمكن للمحقق أن يستوعب سبل الحقيقة بغير الجمع بين سائر مظاهرها. مما يقال للشيء وعليه كما كان شأن « قانت » في كتابه الجليل « نقد العقل الصحيح أو العقل الصراح » وقد كان هذا الشيخ الجليل الغزالي في تعطش الى درك حقائق الأمور من اول أمره وريضان عمره، وكان البحث وراء الحقيقة غريزة وفضرة وضعتا في جبلته. ومما يجدر بالنظر في نفسية هذا الفيلسوف انه مازال هذا دأبه وديدنه حتى انحلت عنه رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة، لأن مطلوبه كان العلم بحقائق الأمور، ومن امثاله التي ضربها في رفعة قدر العلم في نظره انه اذا علم ان العشرة اكثر من الثلاثة فلو قال له قائل لا بل الثلاثة اكثر بدليل اني اقلب هذه العصا ثعباناً وقلبها وشاهد ذلك منه، لن يشك بسبب هذه المعجزة أو الكرامة أو الحيلة السحرية في معرفته أن العشرة اكثر من الثلاثة ولم يحصل له منه إلا التعجب من قدرة هذا الذي قلب العصا ثعباناً، فأما الشك فيما علم فلا، ثم ثبت له أن كل ما لا يعامه على هذا الوجه ولا يتأكد على هذا النوع اليقيني فهو علم لا ثقة له به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني

(٥)

والغريب في أمر هذا الفيلسوف أنه سلك سبيل الفلسفة الحسية قبل (دافيد هيوم) الانجليزي بستة أو سبعة قرون، واذا علمنا أن دافيد هيوم كان له أعظم فضل في تنمية فكر « عمانوايل قانت » الالماني الذي أقر في كتابه بأن هيوم هو الذي أيقظه من غفلته، لعلمنا مقدار عقل الفيلسوف الغزالي بالنسبة لهؤلاء المحدثين الاجناد من أهل أوروبا، فن الغزالي فتش عن العلوم فوجد نفسه عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات، فقال الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات وهي الحسيات والضروريات، فلا بد من إحكامها أولاً ليتبين أن ثقته بالمحسوسات وأمانه من الغلط في الضروريات من جنس أمانه الذي كان من قبل في التقليديات

(٦)

ولما وصل الى الفلسفة، قال أن الدهريين أول الفلاسفة الاقدمين. وانهم جحدوا الصانع المدبر العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه لا بصانع ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبداً

والصنف الثاني الطبيعيون وم قوم ا اكثروا بمختمهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات وا اكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات ، فرعموا أن النفس تموت ولا تعود ، وجحدوا الآخرة ، وانكروا الجنة والنار ، والقيامة والحساب ، فأنحل عنهم اللجام وانهمكوا في الشهوات انهمالك الانعدام والصنف الثالث وقد وصفهم الغزالي بانهم الاهيون وهم المتأخرون ، منهم سقراط وهو استاذ أفلاطون ، وافلاطون استاذ ارسطوطاليس ، وارسطوطاليس هو الذي رتب لهم المنطق وهذب العلوم وخرمهم ما لم يكن مخمراً من قبل ، وانفضج لهم ما كان فجاً من علومهم ، وهؤلاء الاهيون ردوا على الصنفين السابقين وهم الدهريون والطبيعيون ، وأوردوا في الكشف عن فضائهم ما أغنوا به غيرهم ، ثم رد ارسطوطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبله من الاهيين رداً لم يقتصر فيه حتى تبرأ عنهم جميعاً

ومن العجيب أن الامام الغزالي مع اعترافه بفضل فلاسفة الاغريق لاسيما ارسطو ، فانه عاب على الفلاسفة الاسلاميين اتباعهم اياه ، وذكر أن ابن سينا والفارابي لم يقم بنقل ارسطو من فلاسفة الاسلام أحد كقيام هذين الرجلين . وكان هذا بالطبع قبل ظهور ابن رشد ولو أدركه الغزالي لفضله عليهما وان كان لها فضل سبق والتقدم

(٧)

ولما فرغ الغزالي من النظر في العلوم الفلسفية وقبل منها ما قبل ، وزيف ما زيف شعر بأن علومهم غير وافية بكمال الغرض ، فاتجه نظره الى البحث في مذهب التعليم وغائلته ولكنه قبل الشروع في درس هذا المذهب وصل الى ما وصل إليه «عمانوايل قانت» من أن العقل ليس مستقلاً بالاحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات وبهذه العقيدة الجديدة التي تمد المرحلة الثانية في تكوين عقل الغزالي ، فإن المرحلة الأولى كانت التقليد ، والثانية كانت البحث في أقوال المتكلمين والفلاسفة ، أخذ يدرس مبادئ الطائفة التعليمية فابتدأ يطلب كتبهم كما فعل في كتب الفلاسفة ، وترتيب كلامهم ورتبه ترتيباً محكماً مقارنة للتحقيق ، واستوفى الجواب عنه حتى أنكر بعض أهل زمانه من العامة عليه مبالغة في تقرير حجتهم ، وقالوا ان هذا سعى لهم أى طائفة التعليمية وانهم كانوا يعجزون عن نصره طائفتهم لولا تحقيق الغزالي وترتيبه .

(٨)

وليس هذا الاعتراض بين علماء الاسلام حديثاً ، فقد أنكر احمد بن حنبل على الحارث المحاسبي كتابه في الرد على المعتزلة ، فأجابه الحارث بأن الرد على البدعة فرض

فقال ابن حنبل « نعم ولكنك حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها فلم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت الى الجواب أو ينظر اليه ولا يفهم كنهه »
وما ذكره ابن حنبل حق ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر ، أما اذا انتشرت فالجواب عنها واجب ولا يمكن الجواب إلا بعد حكاية الشبهات على حقيقتها كما فعلنا في كتاب «الشهاب الراسد» الذي جعلناه رداً على موضوع الشعر الجاهلي

ويظهر لنا أن الغزالي لم يكن مدفوعاً الى الرد على مذهب التعليم من تلقاء نفسه فقط بل كان هناك دافع سياسي ، لانه بانتشار مذهب التعليمية شاع بين الناس تحدى هذه الطائفة بمعرفة معنى الامور من جهة الامام المعصوم القائم بالحق ، ويظهر أن الخليفة فطن الى ما يتهدد مركز الخلافة من شيوع هذا المذهب فكلف الغزالي بالرد عليهم ، فقال الغزالي في حكاية هذا التكليف ما نصه « ثم اتفق ان ورد على أمر حازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم فلم يسعى مدافعتهم وصار ذلك مستحشاً من خارج ضميعة للباعث الاصلى من الباطن » وهذا الأطف ما يقال في حسن التعليل إذ الظاهر من مذهب التعليمية أنه مزيج من السياسة والشريعة . والسياسة فيه أظهر وقليل من الفلسفة اتخذه أربابه ترويحاً لمذهبهم ليصبغوه بصبغة الحكمة فاقتدوا ببعض أقوال فيثاغور فلم يكن هذا البحث يخلو من رائحة الفلسفة لأن التعليميين لما عرضت لهم اشكالات لم يفهموها ولم يحلوها ، واحالوها على الامام الغائب ، قالوا انه لا بد من السفر اليه وضيعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التنجيع بالظفر به

(٩)

وعلى كل حال فان هذا البحث الاخير وجه الغزالي الى ما كان مخلوقه له حقاً وهو طريق الصوفية ، فأقبل عليه بهمة وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتزهد عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله . وكان العلم ايسر من العمل فقرأ كتبهم وطالع رسائلهم وأهمها : كتب ابى طالب المكي ، والحارث المحاسبي والمأثور عن الجنيد والشبلي والبسطامي . وحصل الغزالي كل ما يمكن تحصيله من طريقتهم بالتعلم والسماع ، الى ان ظهر له ان أحسن خواصهم ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ، فكم من الفرق بين ان يعلم الانسان حد الصحة وحد الشع وحد السكر وأسبابها وشروطها ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان وسكران وكل باحث في حقيقة المتصوفين يعلم يقيناً أنهم ارباب احوال لا اصحاب اقوال

(١٠)

على ان الغزالي الذي رأيناه يعجب بمعجزة قلب العصا ثعباناً ولا يجعلها دليلاً أو وسيلة لانكار ما ثبت في نفسه من طريق العلم اليقيني ، نراه عند لوجه باب التصوف يقول انه قد حصل له من العلوم التي مارسها والمسالك التي سلكها في التفتيش عن العلوم العقلية والشرعية ايمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر وان هذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت رسخت في نفسه لا بدليل معين مجرد أى كما رسخ في نفسه ان العشرة اكثر من الثلاثة ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تفاصيلها تحت الحصر وكان بحكم السن وانقضاء العمر في مكارم الاخلاق وفضائل المجاهدات ظهر عنده ان لا مطمع له في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الفرور والالاباة الى دار الخلود والاقبال بكنه المهمة على الله تعالى وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل .

(١١)

وقد عرضت تلك المشكلة للغزالي وهو في قمة مجده منغمس في العلائق وقد احدثت به من الجوانب ، وأم اعماله اذ ذاك التدريس والتعليم والباعث عليهما طلب الجاه وانتشار الصيت ، فلم يزل يفكر في العزم على الخروج من بغداد لمناقرة تلك الاحوال ستة اشهر من رجب سنة ٤٨٨ هجرية الى آخر تلك السنة حتى مرض ويئس الاطباء من شفائه فخرج مرغماً مضطراً وهو يظهر انه مسافر الى الشام خذراً من ان يطلع الخليفة وسمحاه على عزمه وهو ان لا يعود الى بغداد ابداً ، ثم دخل الشام وأقام بها سنتين في العزلة والخلوة والرياضة ثم دخل الى بيت المقدس واحتل في الصخرة ثم سار الى الحجاز ثم جذبته دعوات الأطفال الى الوطن ، ودام على ذلك مقدار عشر سنين وانكشفت له في أثنائها امور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، وخلاصتها التي يجوز الاتفاغ بها هي انه علم يقيناً ان الصوفية م السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرم احسن السير ، وطريقهم اصوب الطرق ، واخلاقهم ازكى الاخلاق

(١٢)

وظاهر من هذا ان الغزالي لم يكن فيلسوفاً عقلياً ، انما كان حكيماً دينياً بالفطرة ، وانه اتخذ العلم والعقل والشرع ذاته وسيلة للوصول الى الحال التي هيأته لها الطبيعة ، على ان هذا لا يمنعنا من القول بان عقله النادر المثال لدى مروره بالفلسفة اليونانية والعربية أفادها واستفاد منها ، وهذا ظاهر من مؤلفاته التي ذكرناها لا سيما « مقاصد الفلاسفة » و « احياء علوم الدين » و « تهافت الفلاسفة » الذي سيرد الكلام عليه بالتفصيل في عرض الكلام على ابن رشد وهو الفيلسوف الاسلامي الوحيد الذي رد عليه بكتاب مثله .